



لماذا يا سومبك؟

— ليلي عبدالرحمن الموسى - السعودية —

إذن هو الخلود رغبة تتجذر في أعماقنا، إن أحداً لا يصرح برغبته فيه، ويضطرنا التسليم بحقيقة الموت إلى تجاهل تلك الرغبة، التي ما تلبث أن تظهر في حنيننا إلى الأماكن القديمة، ورغبتنا في ذرية تحمل أسماءنا، فإن اختفى رسمنا فهذا اسمنا.

والخلود في الدار الآخرة، هو الذي يضبط هذا المفهوم، يطور أداءه، ويخرجه من تيه الرغبات، إلى واقع المشروعات، والقرارات، بل.... والكلمات.. «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ» (٢٤) (إبراهيم).

إن جوعة الخلود تقض مضاجع البشر التائهين عن خالقهم، فلا يمكن للطبيعة البشرية أن تحتل تلك

لم يكن ثمة حديث عابر عندما كان يتحدث عن صعوبة تصور الحياة دون أن نكون فيها اسماً ورسمًا.. تصور صعب فعلاً! تصور يهزم مطلع سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (١) (القيامة)؟!

لقد تعرفنا على الحياة من خلال تجربتنا الحية، عندما عشنا كل لحظة وعرفنا معنى الحياة فيها، أما الموت فتسمع عنه، ولا نعرفه إلا من خلال تجارب الآخرين، الذين مضوا دون أن يخبرونا عن كنهه وأسراره، تركونا إلى اللحظة التي نتعرف فيها عليه وهي لحظة فقداننا للحياة، فبقي الموت تجربة عالقة غامضة.. غيباً لا يغيب عن مخاوفنا وهو اجسنا.

عموماً ليس عيباً أن تبصر الحياة من نافذتنا الحية، نقرأ التاريخ كشهداء عليه، وننظر إلى المستقبل كمخططين له، فالحياة لولا أنها تحدث لما تصورناها، والموت لولا أنه يقع لما صدقناه!..



غريباً فريداً فقالت: أريد رضا الله تعالى، وأريد بناء
مئذنة مثل مئذنة المسجد الجامع، الذي بناه المتوكل سنة
٢٣٧ في مدينة سامراء.

وبالفعل بنى الخليفة المسجد منذ عام ٢٩٠ هـ، ولا
يزال بناؤه عامراً على مساحة ٣٨ ألف متر مربع، والمئذنة
لا تزال قائمة، يصل ارتفاعها إلى ٥٢ متراً، وبإمكان
سيارة صغيرة الصعود عليها، يبلغ عدد درجاتها ٣٩٩
درجة، يصعد بها المؤذن خمس مرات يومياً..

لماذا كل هذا يا سومبك؟
هل ألقى في روعك أن ديار الإسلام ستصيبها نازلة؟
وسيطفاً كل نور يشع منه الإسلام في بلادك؟ فيبقى
وقفك.. أقصد مهرك، مسجداً ومنارة شامخة، تستعصي
على عوامل التعرية البشرية والطبيعية.

وبين قازان وبغداد جسر مخملي من المشاعر
الإنسانية.. رحلت سومبك عروس الخليفة إلى بغداد،
ورحل من بغداد شاعرهما ابن زريق البغدادي تاركاً زوجته
العروس وفي قلبه لوعة، وفي فؤاده لهيب، متجهاً إلى الأندلس
التي توفي فيها بعد أن كتب قصيدته الخالدة: لا تعذليه...
لك الله يا ابن زريق! رحلت من الدنيا حزيناً بعيداً
تاركاً يتيمتك.. أقصد قصيدتك التي مسح على رأسها
كل من قرأها، وقد كفلتها عيون الشعر العربي دراسة
ونقداً وخلوداً، فلا تأبه أيها الشاعر المرهف بخليفة طواه
النسيان، فالتاريخ كتب قصيدتك بزالال العين، وماء
الورد.

ولربما شاعر مثل ابن زريق في قبره المجهول ومكانه
البرزخي، في حاجة لشاعرية من نوع آخر، كشاعرية
امرأة سجلت مشاركة في أوقاف الندوة العالمية للشباب
الإسلامي باسم ابن زريق البغدادي، وقد مضى على
وفاته ١٤١٦ عاماً.

عجيب أمرك أيها الإنسان ليس لك حلٌ إلا الجنة،
حيث خلود.. في خلود.. في خلود. ■

الجوعة، فكم هو مسكين ذلك الإنسان المبتور الموتور.
فالخلود معنى رفيف يحاكي رغبة النفس بالبقاء بعد فناء
الجسد.

فلا عجب أن يرصد رسولنا الكريم صلى الله عليه
وسلم، أجوراً هائلة للصلاة على الميت، أجوراً بمقدار جبل
أحد، الذي يبلغ طوله سبعة كيلومترات، وعرضه ثلاثة
كيلومترات، وما ذاك - والله أعلم - إلا لتوافق مع حقيقة
الموت.

فالمت معنى بالصلاة عليه والدعاء له، لكن المعنى
الأول هو الحي المصلي، صلاة تختلف في حركاتها
وسكاتها عن صلاته اليومية التي اعتاد عليها، وبين عينيهِ
صورة لا يمكن تجاهلها، وهي صورة الجسد المسجى الذي
فارق الحياة، إنها لحظة مواتية لإعادة النظر في موقعنا في
الحياة.. بل في الكون.

حينئذ نلتفت فتجد نهراً خالداً يلبي تلك الرغبة
الدنيئة، والحاجة النفسية المتينة، إنه (الوقف) الذي يشد
عضدنا أمام الموت الذي يجتاح أحاسيسنا.

فالراحة والطمأنينة اللتان نشعر بهما عندما نوقف
وقفاً، أو نجري صدقة، أو ننشر علماً، تتغذى عليها رغبتنا
في الخلود، فتسري فينا حيوية جديدة، تعزز من إنسانيتنا،
وتطور أداءنا، وليس سراً أن الأوقاف كانت سر الحضارة
الإسلامية الخالدة.

لن آخذ من وقتك - أيها القارئ الكريم - أكثر، فالقراء
يعرفون في هذا المجال أكثر مما أعرف، وسأعرج بك على
حكاية عروس، تحول مهرها إلى أغرب وقف، وأغرب مهر
في أجمل بقاع الأرض!.. حيث يلتقي نهر الفولجا بنهر
قازان قبل أن يصبأ في بحر قزوين، وتحديداً في مدينة
قازان بجمهورية تتارية، قبل ١١٤٥ سنة، فقد حدث أن
اشترطت فتاة تدعى (سومبك) في أثناء عقد قرانها
بالخليفة العباسي مهراً إبداعياً، فبعد أن فتح الشيخ
العقد، وسأل الفتاة عما تريده من مهر، جاء الجواب